

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

بعض ما ورد عن السلف في باب برب الوالدين وصلة الأرحام

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمما ورد عن السلف رضي الله تعالى عنهم - فيما يتعلق ببر الوالدين وصلة الأرحام ما جاء عن محمد بن المنكدر - محمد بن المنكدر رحمه الله - من أئمة التابعين، وهو ابن خال عائشة رضي الله تعالى عنها - أم المؤمنين - أنه كان يضع خده على الأرض، ثم يقول لأمه: قومي ضعي قدمك على خدي^(١). إمام وعبد وعالم يقول مثل هذا الكلام.

يقول محمد بن المنكدر: بات أخي يصلني، وإخوان محمد: واحد يقال له: أبو بكر، وواحد آخر اسمه عمر، يقول: بات أخي يصلني وبت أغمر قدم أمي، يقول: وما أحب أن لي ليلتي بليلته، يعني: صنيعه بأمه هذا يفضل عنده قيام الليل.

وجاء عن أبي بكر بن عياش - وهو أحد أئمة السنة - أنه قال: كنت مع منصور بن المعتمر جالساً في بيته، ومنصور بن المعتمر إمام - فتصح به أمه وكانت فظة عليه، شديدة غليظة، تصريح عليه، فتقول: يا منصور يريديك ابن هبيرة على القضاء فتابى؟^(٢) تقول: لماذا ترفض القضاء؟ والسلف كانوا يتبرجون من هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: ((قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة))^(٣)، وهو واضح لحيته على صدره ما يرفع طرفة إليها.

ما رد عليها ولا غضب، ولا قال: أحرجتني بالرجل، وما قال لها: أنت ما تعرفين هذه الأشياء أصلاً، وما شأنك بها.

وكان كهؤس بن الحسن التميمي برياً بأمه، فلما ماتت حج وأقام بمكة حتى مات، قيل: إنه أراد قتل عقرب - هذا من بره بأمه - أراد قتل عقرب فدخلت في حجر، فأدخل أصبعه خلفها ليخرجها فضربته العقرب، فقيل له: لماذا فعلت هذا؟ قال: خفت أن تخرج فتجيء إلى أمي تلدغها^(٤).

وجاء عن إبراهيم بن هاشم أنه قال: لما نزل جرير بن عبد الحميد الكوفي ببغداد على ابن المسيب، فلما عبر إلى الجانب الشرقي جاء المد - يعني: النهر - فقلت لأحمد بن حنبل: تعبّر؟ فقال: أمي لا تدعني، أمي ما

١- الطبقات الكبرى ص: (١٩١).

٢- تاريخ الإسلام للذهبي، (٨/٥٤٨).

٣- أخرجه الترمذى، أبواب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - في القاضى، (٦٠٥/٣)، برقم: (١٣٢٢)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضى، باب ما على القاضى في الخصوم والشهدود، (١٩٩/١٠)، برقم: (٢٠٣٥٥)، وصححه الألبانى، فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٨١٩/٢)، برقم: (٤٤٤٧).

٤- سير أعلام النبلاء (٣١٧/٦).

تسمح لي أني أعبر النهر في حالة المد، الإمام أحمد أمه ما تسمح، فجلس، يقول: فعبرت أنا، مع أنه كان في غاية الحرص من أجل أن يصاحب هذا الإمام، ويكتب عنه الحديث ونحو ذلك، لكن وقف عند رغبة أمه^(٥). وهذا جعفر الخلدي يقول: كان الأئم من أزهد الناس، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة، يعني: الرحلة لكتابه الحديث، لطلب العلم، فلم تأذن له فجلس، ثم ماتت فخرج إلى خراسان، ثم وصل بلخ وقد مات قتيبة الذي كان يريد أن يذهب إليه ليكتب عنه الحديث، فكانوا يعزونه على هذا، فقال: هذه ثمرة العلم، إني اخترت رضا الوالدة، يعني العلم يدعو للعمل، أتعلم لماذا؟ وأكتب الحديث لماذا؟ من أجل أن أطبق^(٦). وجاء من كلام محمد وهو الحكيم الترمذى: ليس في الدنيا حمل أثقل من البر، فمن برّك فقد أوتقاك، ومن جفاك فقد أطلفك^(٧).

يعنى: من برّك يكون قد أسرك ببره، ومن جفاك فقد أطلفك، لا يكون له إحسان وفضل عليك. ويقول الحسن بن سفيان: إنما فانتي يحيى بن يحيى، هذا أيضاً من أئمة السنة، يقول: إنما فانتي يحيى بن يحيى بالوالدة لم تدعني أخرج إليه، قال: فعوضني الله بأبي خالد الفراء^(٨). وأخبارهم في هذا كثيرة، أبو حنيفة -رحمه الله- يعني كما قيل: أزهد الناس في العالم أهله، أبو حنيفة أمه كانت تأمره أن يذهب بها إلى فقيه من أجل أن تستفتيه، فكان يأخذ بيدها ويدعوها إلى وإيه، بل إلى واعظ وليس إلى فقيه من أجل أن تسأله، فيأخذ بيدها برأها ويدعوها إلى هذا الواقع من أجل أن تسأله^(٩). آخر كان إذا جلس مع تلامذته وكذا خرجت إليه أمه وقالت: أطعم الدجاج، فيقوم ويترك تلامذته ويدعوه ويطعم الدجاج، هكذا كانت أخلاقهم، وهكذا كانت تربيتهم، وهكذا كان العلم دليلاً لهم على العمل، ومرضاة الله -جل جلاله.

وجاء من شعر الإمام الطرطوشى المالكى:

لو كان يدرى الابنُ أيةً غصَّةٍ	يُتَجَرِّعُ الْأَبْوَانِ عَنْ فِرَاقِهِ
أُمٌّ تَهِيمُ بِوَجْدِهِ حِيرَانَةٍ	وَأَبٌ يَسُحُّ الدَّمْعَ مِنْ آمَاقِهِ
يُتَجَرِّعُ عَنْ لَبِينَهُ غُصَصُ الرَّدَى	وَيَبُوحُ مَا كَتْمَاهُ مِنْ أَشْوَاقِهِ
لَرَثًا لَأَمْ سُلَّ منْ أَحْشَائِهَا	وَبَكِي لِشِيخِ هَامِ فِي آفَاقِهِ
وَلَبِدَّ الْخُلُقَ الْأَبِيَّ بِعَطْفِهِ	وَجْزَاهُما بِالْعَذْبِ مِنْ أَخْلَاقِهِ

وهذا الإمام ابن عساكر صاحب التاريخ الكبير المعروف سئل: لماذا تأخر عن الرحلة إلى أصحابه من أجل كتابة العلم؟ قال: استأذنت أمي في الرحلة فما أذنت لي، ما غضب عليها، ونفض يده في وجهها، وتركها،

٥- تاريخ بغداد وذريته (٢٦٦/٧).

٦- تذكرة الحفاظ، للذهبي (١٥٧/٢).

٧- سير أعلام النبلاء (٤٦٦/١٠).

٨- تاريخ دمشق لأبن عساكر (١٠٢/١٣).

٩- تاريخ بغداد وذريته (٣٦٣/١٣).

واليوم الواحد يسافر مع أصدقائه حتى لربما ما يستأنن ولا يخبر والديه، ولربما زجرهما غاية الزجر، أمه تتوسل، أمه كذا.

وأحد الأشخاص نكر لي بعدهما تابـ، يقول: إنه كان قد سافر سفراً محراً للفجور وأبوه في حال الاحتضار، ومات أبوه، ولم يشهده، وهو يعلم أنها اللحظات الأخيرة وسافر.

ويحكى عن أخيه لما مات، عن أخيه الأكبر يقول: كان يعني مثل هذا الشخص الذي كان يحدثني ومن الله عليه بالهدایة، كان في غاية السوء، يقول: لما كان عند الموت في الاحتضار كان يؤشر لهم يريد سيجاره. فأقول: الإنسان ينبغي أن يرجع إلى نفسه وينظر ويفكر هل هو بار فعلاً، ماذما قدم لأبويه، كيف تعامله معهم، هل يحقق رغبة الوالدين، هل نفوسهم طيبة تجاهه، إذا منعاه من شيء ما هو موقفه؟، إذا عتاباه، إذا نكر الوالد أو الوالدة رأياً يخالف رأيه أو سمع منها شيئاً لا يعجبه، أحياناً يتكلم الأب عن شيء، أو الأم مسكونة، قد يتكلمان عن أمور قد لا يكون لهم بها معرفة، لكن دائماً: لو أنك ذهبت إلى البلد الفلاني، ما ذهبت إلى البلد الفلاني، لو أنك بنيت الأرض الفلانية، ما بنيت الأرض الفلانية، لو أنك وسعت المكان الفلاني وكذا، دائماً يعاد هذا الكلام أحياناً فيضجر، ولربما يرد برد فيه تنمر أو نحو هذا، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة المتكررة التي تحصل للناس، ويحصل بسببها شيء من التعنيف أو الرد الغليظ، بل ما زلت أذكر أحد الأشخاص رجل كبير في السن وكان مؤذن مسجد، كان يبكي ويقول: إن ولده يضع المسدس على رأسه وبطشه بالمال، وهو رجل فقير ليس عنده إلا مال يسير من الأذان، وهذا الولد مبتلى ببلايا ومخدرات وأشياء.

وأم أخرى كانت تدعوا على ولدها قائمة وقاعدة أن يموت، وحصل له أكثر من مرة أنه سقط، وأغمي عليه، ومرة صدم وما مات، فكانت تقول: كل الناس يحصل لهم أشياء ويموتون إلا هذا الولد ما يموت، تتعجب عليه، ولما مرضت واشتدت بها المرض وأصابتها أمراض موجعة مدة طويلة جداً، وكانت تتالم غاية التالم، ما تستطيع أن يلمسها أحد من الآلام التي في جسمها كانت تعزو هذا إلى ما أورثه هذا الولد لها من الهم والغم والعنق، وكانت تقول وهي في حال الموت: لا يدخل عليّ، لا أراه، تقول: إذا رأيته رأيت الموت، حتى فارقت الدنيا.

فأقول: الإنسان ينبغي دائماً أن يفكـر، وقد لا نعرف هذه المشاعر إلا إذا جاءنا أولاد، فإذا رأينا منهم الرد القاسي عرفنا مشاعر الأب، وإذا رأينا منهم جفوة عرفنا مشاعر الأبوين، وإذا مرض أحد هؤلاء الأولاد كيف يحصل للإنسان الألم والضيق، ويتمنى أن المرض فيه هو وليس في الولد، هكذا مشاعر الأبوين، فينبغي أن يصدر منا الإحسان والبر والكلام الطيب والمعلوم، ولا يدخل الإنسان على أبويه بشيء.

نسأل الله -عز وجلـ- أن يلطـفـ بـناـ وـيرـزـقـنـاـ جـمـيعـاـ البرـ والـصلةـ، وـأنـ يـتـولـنـاـ بـرـحـمـتـهـ، وـيـغـفـرـ لـوـالـدـيـنـاـ وـلـإـخـوـانـاـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـصـلـىـ اللـهـ عـلـىـ نـبـيـنـاـ مـحـمـدـ، وـآلـهـ وـصـحـبـهـ.